الـمحاضرة الثالثة :

الأوضاع الثقافية للمغرب الأوسط في أواخر العهد الزياني

أعقب سقوط الدولة الموحدية صراعات حادة بين دول المغرب كانت الجزائر (المغرب الأوسط) مسرحا لها أكثر من تونس والمغرب الأقصى بحكم موقعها الجغرافي، الشيء الذي أضعف السلطة المركزية لبني زيان . كانت دولة بني زيان تسيطر نظريا على القسم الغربي من الجزائر الحالية (مركزها تلمسان)التي أنشأها "أبو يحي يغمراس بن زيان" سنة 1236 م ، لكن هذه المملكة ظلت عرضة لغزوات بني مرين في المغرب الأقصى وبني حفص في تونس، و هذا ما أدى إلى انتشار الضعف في دولة بني زيان وبني حفص في تونس .فمنذ منتصف القرن الرابع عشر عانت الدولة الزيانية من هجمات الايبيريين الإسبان وذلك بسبب تجزء وضعف مملكة الزيانيين في المغرب الأوسط نتيجة الخلافات العائلية. فالأمراء المستقرون في وهران وتنس ثاروا ضد حكام تلمسان وفي الشرق استقلت بجاية وقسنطينة عن الحكومة المركزية أما الموانئ فقد شكلت "جمهوريات صغيرة" كالجزائر وبونة وجيجل ودلس...إلخ .

في الهضاب العليا والجنوب كانت الاتحادات القبلية مستقلة عن أي سلطة مركزية أما في ما يعرف حاليا "منطقة القبائل"، فقد بدأت إمارات مستقلة بالنشوء، وعلى المستوى الاجتماعي والاقتصادي توقفت التجارة وتراجع التحضر والزراعة .بالمقابل، وفي الجهة الشمالية بعد سقوط الأندلس عام 1492 ومع سقوط إمارة غرناطة آخر معقل كان بحوزة المسلمين، نقل الإسبان الحملات الصليبية إلى قلب الجزائر، فاحتلوا العديد من المدن الساحلية: المرسى الكبير 1505 ووهران 1509 وبجاية 1510 . مدينة الجزائر التي لم يكن لديها جيش قوي ولا مدفعية كافية لمواجهة الجيش الإسباني بدأت تشعر بالتهديد، خصوصا بعد أن بنى الإسبان عام 1510 قلعة على واحدة من الجزر التي تواجه المدينة، لذلك قام ملوك الجزائر سليم التومي وسيدي أحمد أولقاضي بالاستنجاد بالإخوة "بربروس" وكان ذلك بداية الحكم العثماني في الجزائر بداية من سنة 1516 .على الرغم من أن القرن الخامس عشر -15- كان فترة اضطرابات سياسية وعدم استقرار، إلا أنه كما يؤكد شيخ المؤرخين المرحوم أبو القاسم سعد الله في كتابه (تاريخ الجزائر الثقافي) فترة من أوفر إنتاج الجزائر الثقافي ومن أخصب عهودها بأسماء المثقفين و العلماء والمؤلفات . وكثير من إنتاج القرن 15 ظل موضع عناية علماء القرون اللاحقة والتعليق عليه وتقليده ونحو ذلك .وكثير من علماء القرن السادس عشر، كانوا تلاميذ أوفياء لعلماء القرن الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري) ومما نلاحظ أن بعض هذه الأعمال قد كتبه علماء تغلب عليهم تخصص آخر غير التاريخ، مثل التنسي الذي اشتهر بدراسته الحديث والفقه والأدب، ومثل ابن

القنفذ الذي تغلبت عليه العلوم كالحساب والإسطرلاب والفلك، ومثل الثعالبي الذي عرف بالزهد وعلوم الدين، ومع ذلك فإن آثار هؤلاء التاريخية ما تزال تحتفظ بقيمتها.

ورغم قرب العهد بابن خلدون وملاحظاته النافذة على المجتمع السياسي والاقتصادي لعصره فإن مدرسته لم تجد صدى بين كتاب التاريخ في جيل هذه المرحلة. رغم أن محمد بن الأزرق قد تأثر به كثيرا ونقل عنه الفقرات الطويلة، لكن لا نجد آراءه ولا آراء أستاذه ابن خلدون قد تسربت إلى كتاب التنسي وأمثاله من مؤرخي القرن التاسع الهجري .

كما ساهم بدايات انهيار دولة الأندلس والتدفق كبير للمهاجرين الأندلسيين إلى شمال إفريقيا في هذه الحركة الفكرية الثقافية. ففي مملكة الزيانيين، رحبت تلمسان ب 50 ألف هارب من الأندلس من قرطبة، نقلوا معهم رصيدهم الأندلسي من معرفة وفن حضارة وهو ما ساهم في ازدهار المملكة .

يعتبر العصر الزياني عموما، في المغرب الأوسط ، من أزهى العصور حيث ازدهرت فيه الثقافة والتعليم وعرفت البلاد أوج مجدها الحضاري والفكري والعلمي ،ويعود ذلك إلى نمو الحركة التعليمية التي ساهمت في ظهور جيل من العلماء الذين قادوا المسيرة العلمية إلى الامام . ومن مظاهر هذا الاهتمام ، إنشاؤهم ورعايتهم للمؤسسات التعليمية التي كان لها فضل كبير في تفعيل النشاط الفكري ، فانتشرت الكتاتيب والمساجد والمدارس والزوايا، وظهر عدد هائل من العلماء ، فخلفوا تراثا علميا هاما ما يزال متوارثا بين الأجيال .وعلى الرغم من اضطلاع المساجد والكتاتيب بمهمة التربية والتعليم،

تعتبر الزوايا أهم المؤسسات العلمية الهامة في بلاد المغرب. حيث تطلق الزاوية على البناية ذات الطابع الديني الثقافي، تقام فيها الصلوات الخمس ، فضلا عن الدروس التي كانت تلقى على الطلبة ، كما يسمح لهم أحيانا بالسكن فيها .وكانت تمول بأموال الحبوس لتقوم بوظيفتها على أحسن وجه، حيث أوكلت لها مهمة تحفيظ القران الكريم و تدريس مختلف العلوم سواء النقلية أو العقلية . وازداد انتشارها في البوادي ، فكان لذلك تأثير في تقليص الفوارق التعليمية بين الأرياف والمدن .

شهدت تلمسان عاصمة الزيانيين حركه ثقافية وعلمية نشطه، ففي العهد الزياني أصبحت تلمسان من أهم الحواضر العلمية والثقافية في العالم الإسلامي، فقد شجع حكام بني زيان على غرار أسلافهم الموحدين الحركة الثقافية والعلمية، واحتفوا بأهل العلم والأدب، وجعلوا من تلمسان مركز استقطاب للمفكرين من شتى بلاد الإسلام، خصوصا من المهاجرين الأندلسيين الذين فروا من بلادهم بسبب البطش المسيحي، حاملين معهم علومهم وآدابهم وقد سجل هذا الازدهار في مظاهر علميه وثقافيه متعددة منها كثرة مراكز التعليم من مساجد ومدارس وزوايا، وكثره العلماء بالمدينة، وظهور الكثير من المؤلفات التي تنوعت بين علوم نقلية وأخرى عقلية تتضمن جل العلوم والفنون المعروفة في تلك الفترة، وكان لهذا النشاط تأثير وإشعاع ثقافي كبير ليس على تلمسان فحسب بل امتد ليشمل المغرب والأندلس.

وكان التعليم منتشرا في المدن والقرى، حيث يتعلم الطلاب في المرحلة الأولى القراءة والكتابة وحفظ أجزاء من القران الكريم وتجويده، ويكون ذلك في الكتاتيب وبعض الزوايا ويكون الطلبة غالبا من صغار السن حيث يتلون القران الكريم بصوت واحد، وفي مرحله متقدمة يدرس الطلبة علوم النحو واللغة والفقه والأدب،

فيحققون مستوى لائق يمكنهم من معرفة دينهم والإلمام باللغة العربية، وعدد الطلبة فيها يقلعنه في المرحلة السابقة، وفي مرحله ثالثه يركز الطلبة على فرع معين من العلوم والآداب بمزيد من التوسع والتعمق والتفصيل،وتكون الدراسة في هذه المرحلة في المدارس أو المساجد المشهورة كالمسجد الأعظم بتلمسان، ويقل عدد الطلبة عن المرحلة السابقة أما سن الطالب فيكون في حدود ال 20 عاما، وبعد الانتهاء من هذه المرحلة التي تستمر حوالي عشره أعوام يطوف الطلاب البلاد للقاء العلماء المشهورين، وكثير منهم يرتحل إلى أقطار المغرب الأخرى والمشرق، فيوسع مداركه العلمية ويتعمق فيها، وقد يشتغل هناك بالتعليم أو بمناصب أخرى، فتأثرت بذلك الحياة الفكرية إلى مدى بعيد بفضل هذا الاحتكاك مع علماء الأقطار الإسلامية الأخرى.

أما نظم التدريس فكانت على نوعين من التعليم النوع الأول حكومي ويسمى كذلك التعليم الرسمي، وهو التعليم الذي تأخذ فيه الدولة على عاتقها بناء المدارس وتعيين المدرسين وتحديد أجور المدرسين وعطاءات الطلاب، وفي هذا النظام التعليمي تقوم الدولة بتدريس المضامين والمذاهب التي تريدها، وتهتم بهذا النوع من التعليم لتكوين وتخريج موظفين لها.

وتذكر المصادر خمسة مدارس كبرى بتلمسان أنشاها الحكام الزيانيون والمرينيون بداية بالسلطان أبي حمو الأول(718ه) الذي انشأ مدرسة أولاد الإمام يوسف بن يعقوب وهما العالمان الجليلان أبو زيد وأبو موسى ووضعهما للتدريس فيها وأقام إيوانين معدين للتدريس، بجانبهما دارين لسكن ابني الإمام، ومساكن للطلبة، وفي عهد السلطان أبي تشوفين الأول(737ه) لم تعد مدرسه أولاد الإمام تفي بالغرض لتزايد أعداد الطلبة، فإنشاء السلطان مدرسة جديدة سماها المدرسة التشفينية قرب المسجد الأعظم،وعين أفضل العلماء للتدريس بها منهم العالم الفاضل موسى المشدالي، وأقر للمدرسين والطلبة رواتب وانشأ السلطان أبو عنان المريني سنة (547) مدرسه عند ضريح الولي أبي عبد الله الشوذي الاشبيلي الملقب بالحلوي، وأقام السلطان أبو حمو موسى الثاني المدرسة اليعقوبية نسبة إلى والده أبي يعقوب يوسف سنة (765ه) وجلب لها أشهر المدرسين وعلى رأسهم العالم الجليل الشيخ الشريف التلمساني، كما أنشاء السلطان أبو العباس أحمد العاقل سنة (650ه) المدرسة الجديدة بتلمسان وعين لها الأوقاف والأحباس، وهكذا كانت تلمسان في عهد أبي حمو الثاني بفضل مدارسها الخمس ومسجدها الأعظم مركزا ثقافيا هاما وبلد إشعاع علمي يضاهي أهم المراكز الثقافية في بلاد المغرب الإسلامي.

أما التعليم الحر فكان يتم دون تدخل الدولة أو تكون سيطرتها عليه قليلة،ويكون عادة داخل الزوايا وقرب قبور الأولياء وبعض المساجد، وابتعاد هذا النوع من التعليم عن سلطة الدولة جعله أوسع مجالا وأكثر معرفه بالمذاهب والفرق من النوع الأول.

وكانت العلوم التي يتم تدريسها في تلمسان في تلك الحقبة التي تشمل كل العلوم المعروفة في ذلك الوقت، وكان إقبال الطلبة كبيرا على شتى صنوف العلم والمعرفة، ويمكن تصنيف هذه العلوم إلى ثلاثة أقسام كبرى هي: العلوم الدينية المستندة إلى الشرع المأخوذة من الكتاب والسنة، والعلوم الإنسانية والاجتماعية، ثم العلوم العقلية والطبيعية.